

موتُ سيِّدِ البشرِ

دروسٌ وعبرٌ

للشيخ

سليمان بن سليم الله الرحيلي

حفظه الله تعالى

النُّسخة الإلكترونية (٢)

الشيخ لم يراجع التفريغ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّ الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾^(١).

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾^(٢).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾^(٣).
أَمَّا بعد..

فإن أحسن الحديث كتاب الله وخير الهدي هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكلّ محدثة بدعة، وكلّ بدعة ضلالة، وكلّ ضلالة في النار.

ثم إننا -أيها الإخوة- نلتقي هذا اللقاء الذي أسأل الله ﷻ بأسمائه الحسنی وصفاته العلا أن يجعله لقاء مباركاً.

نلتقي هذا اللقاء في إمارة الشارقة التي أسأل الله ﷻ أن يوفق ولاية أمرها إلى كل خير، وأن يعينهم ويهديهم ويسددهم ويجعل الخير على أيديهم.

وأسأل الله ﷻ أن يجمع قلوب الراعي والرعية على المحبة الصادقة وعلى الخير والهدى والسنة، وأن يجنبها وباقي الإمارات وبلادنا وبلاد المسلمين الفتن ما ظهر منها وما بطن.

نلتقي هذا اللقاء في محاضرات واحة الإيمان في قناة القصباء التي نسأل الله ﷻ للقائمين عليها التوفيق

(١) سورة: آل عمران الآية (١٠٢).

(٢) سورة: النساء الآية (٠١).

(٣) سورة: الأحزاب الآيات (٧٠-٧١).

والسداد والرّشاد.

نلتقي هذا اللقاء وكلامنا فيه لا يشبه غيره من الكلام، وكيف يشبه غيره من الكلام ونحن نتكلّم عن موت حبيبنا ونبيّنا وإمامنا ومعلّمنا وقدوتنا محمد بن عبد الله ﷺ.

ولن أذكر في كلامي - إن شاء الله - إلا ما تحقّقت ثبوته من الروايات، وقد أعرضت صفحاً عن الروايات الضعيفة في هذا الباب، والمسلم يكفيه الثابت عن غيره.

أيّها الأحبّة..

موت نبيّنا ﷺ نبأ عظيم، فيه عبر عظيمة ودروس جليّة لمن سمع وتفكّر ونظر وتدبّر؛ وذلك أنّ نبيّنا ﷺ بشر يموت كما يموت البشر، وما جعل الله ﷻ لأحد من البشر خُلداً فالنبي ﷺ بشر، مات كالbشر، وكُفّن كغيره من المسلمين، ودفن وأهيل عليه التراب ﷺ.

يقول الله ﷻ: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ (٣٠) ^(١) ويقول الله ﷻ: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَىٰ عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ (١٤٤) ^(٢) وذلك أنّ الله ﷻ بعث محمّداً ﷺ وهو ابن أربعين سنة، بعثه في مكّة فدعا إلى الله ﷻ، ودعا إلى التّوحيد، وصبر وصابر، وجاهد ورابط، وأوذى في ذلك أذىً كثيراً، وأوذى أصحابه - رضوان الله عليهم -، وبقي في مكّة ثلاث عشرة سنة ثابتاً صابراً داعياً إلى التّوحيد محتسباً.

حتى أذن الله ﷻ له بالهجرة إلى المدينة، فهاجر إلى المدينة ووقعت له الوقائع المعلومة المدوّنة في كتب السّير، والذي يهتمّنا منها في موضوعنا اللّيلة ما حدث في السّنة السّابعة، وذلك أنّ النبي ﷺ في السّنة السّابعة فتح خيبر، وكان في خيبر اليهود، فسألت امرأة يهوديّة النّاس عمّا يحبه النبي ﷺ من الشّاة، فقيل لها: إنّهُ يحبُّ الذّراع. فشوت شاةً ووضعت فيها سمّاً وأكثرت السّمّ في الذّراع؛ لأنّها علمت أنّ النبي ﷺ يحبُّ أكل الذّراع وأهدت الشّاة إلى النبي ﷺ وأصحابه، فأخذ الصّحابة يأكلون مع رسول الله ﷺ، فأكل بعضهم ولاك النبي ﷺ لقمة فلم يُسغها، وقال لأصحابه: «ارفعوا أيديكم فإنّها مسمومة» وفي رواية قال

(١) سورة: الزمر الآية (٣٠).

(٢) سورة: آل عمران الآية (١٤٤).

ﷺ لأصحابه: «ارفعوا أيديكم فإنها أخبرتني أنها مسمومة»^(١).

وهنا -يا عبد الله- قف وقفة! النبي ﷺ لا يعلم الغيب، ولم يعلم بمكر هذه اليهودية، لم يعلم الغيب وهو حي ﷺ، فكيف يدعي مدّع أن النبي ﷺ يعلم الغيب وهو ميت ﷺ، وقبض الله الشاة وهي مذبوحة مشوية لكي تخبر النبي ﷺ أنها مسمومة وهذا من معجزات النبي ﷺ.

ولم يظهر أثر السم على النبي ﷺ في حينها؛ وذلك -أيها الأحبة- لحكمة عظيمة ليكمل الله ﷻ الدين^(٢)، وليعلم الناس أن النبي ﷺ نبي مرسل من الله، وفي آخر حياته ﷺ ظهر عليه أثر السم، وذلك لحكمة عظيمة أيضاً، فسبحان الحكيم العليم؛ وذلك ليعلم الناس أن النبي ﷺ بشر شرف بالرسالة، فلا يُعبد من دون الله ولا يُصرف له شيء مما لله ﷻ.

ولذلك جاء عن النبي ﷺ أنه كان يقول في مرض موته الذي مات منه ﷺ: «يا عائشة ما أزال أجد ألم الطعم الذي أكلت في خير، فهذا أوان، وجدت انقطاع أبهري»^(٣).

(١) قصة الشاة المسمومة عند البخاري رحمه الله (كتاب الهبة، باب قبول الهدية من المشركين ح ٢٦١٧)، ومسلم رحمه الله (كتاب السلام، باب السم ح ٢١٩٠). وذكر إخبار الشاة رسول الله ﷺ بأنها مسمومة عند أبي داود رحمه الله (كتاب الديات، باب فيمن سقى رجلاً سما أو أطعمه فمات أيقاد منه ح ٤٥١٢) وقال الشيخ الألباني: (حسن صحيح)، وعنده في الحديث قبل هذا (٤٥١٠) أن الذراع هي التي أخبرته ﷺ، وضعفه الشيخ الألباني رحمه الله.

(٢) فعلم أنه لا تعارض بين هذا وبين قول الله تعالى: ﴿والله يعصمك من الناس﴾.

فعدم ظهور الأثر في ذلك الوقت عصمة له حتى يبلغ رسالة الله، وهذا هو سياق الآية: ﴿يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس﴾، فلذا قال ﷺ لليهودية حين سألها عن سبب فعلها فقالت: إنما أردت قتلك، قال: «إن الله لن يسلطك علي» وهذا في حد ذاته معجزة ألا يؤثر فيه ما يؤثر في سائر البشر من السم القاتل في الحال. فلما تمت الرسالة أراد الله أن يجمع لنبيه شرف الشهادة مع النبوة والرسالة ليجتمع له شرف الموت مع شرف الحياة فلا يفوته شيء مما يشرف ويكمل به الخلق. إضافة إلى ما ذكر الشيخ من ترسيخ عقيدة ﴿قل إنما أنا بشر مثلكم﴾، ﴿وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل..﴾ الآية لئلا يكون مجال للغلو فيه ﷺ.

(٣) (الأبهر) بفتح الهاء: عرق في الظهر، ووريد العنق. (القاموس: ب ه ر)، وفي النهاية: (وقيل: هما الأكحلان اللذان في الذراعين، وقيل: هو عرق مستبطن القلب فإذا انقطع لم تبق معه حياة) اهـ.

من ذلك السُّمُّ»^(١) ولذا ذكر المحققون أنَّ النَّبِيَّ ﷺ مات شهيداً؛ لأنَّه ﷺ مات من أثر السُّمِّ. وفي السنة العاشرة حجَّ النَّبِيُّ ﷺ الحجة العظيمة - حجة الوداع -، وكان النَّبِيُّ ﷺ يودِّع أصحابه ويقول: «خذوا عني، خذوا عني لعلِّي لا ألقاكم بعد عامي هذا».^(٢)

وفي تلك الحجة نزل قول الله ﷻ: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۖ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۚ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ۝﴾^(٣). وكان في ذلك نعي لرسول الله ﷺ وإخبار بدنو أجله.

ولذا كان النَّبِيُّ ﷺ بعد ذلك يُكثر من أن يقول في ركوعه وسجوده: «سبحانك اللهم وبحمدك، اللهم اغفر لي» يتأول القرآن.^(٤)

ورجع النَّبِيُّ ﷺ إلى المدينة من حجة الوداع، وبقي بقية شهر ذي الحجة، وشهر محرم، وصفر وفي أواخر شهر صفر أو أوائل شهر ربيع الأول،^(٥) خرج النَّبِيُّ ﷺ إلى شهداء أحد يودِّعهم كالمودِّع للأحياء والأموات.^(٦)

وكان ﷺ كثيراً ما يخرج إلى بقيع الغرقد يسلم على أصحابه ويدعو لهم، وأكثر ذلك في آخر حياته ﷺ كالمودِّع لهم.

وذات يوم رجع النَّبِيُّ ﷺ من بقيع الغرقد من جنازة في بقيع الغرقد، فوجد أمنا عائشة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا -

(١) بهذا اللفظ عند البخاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في كتاب المغازي، باب مرض النبي ﷺ ووفاته ح (٤٤٢٨) معلقاً بصيغة الجزم، و وصله غيره كما ذكر الحافظ. وفي الحديث السابق عند أبي داود (٤٥١٢) دون قوله (با عائشة).

(٢) وهو عند مسلم (كتاب الحج، باب استحباب رمي جمرة العقبة يوم النحر راجعاً ح (١٢٩٧) بلفظ «خذوا عني مناسككم لعلِّي لا ألقاكم بعد عامي هذا». وورد في حديث آخر مشهور مرتين، وهو «خذوا عني خذوا عني قد جعل الله لهن سبيلاً...» وذلك في باب الحدود معروف، وليس مراداً هنا.

(٣) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أخرجه البخاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (كتاب الأذان، باب التسبيح والدعاء في السجود، ح (٨١٧) ومسلم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود، ح (٤٨٤)).

(٤) السيرة (٧ / ٥٥٧) مع الروض الأنف ط دار إحياء التراث العربي).

(٥) من حديث عقبة بن عامر الجهني رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أخرجه البخاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (كتاب المغازي، باب غزوة أحد، ح (٤٠٤٢)).

وأرضاهما - وهي تشتكي صداعا في رأسها وتقول: وأرأساه، وأرأساه. وقد عصبت رأسها. فقال ﷺ: «بل أنا يا عائشة وأرأساه»^(١).

ومن هنا بُدئ بالنبي ﷺ في مرضه الذي مات منه ﷺ، وابتدأ المرض بالنبي ﷺ خفيفاً. وكان النبي ﷺ يدور بين نسائه يمرض في بيوت نسائه، ولم يستأذن نساءه ﷺ في أن يمرض في بيت عائشة (رضي الله عنها) في ذلك الوقت مع حبه لذلك؛ لكنه كان يشعر بهذا، فكان يقول: «أين أنا غداً؟ أين أنا غداً؟»^(٢) يريد ليلة عائشة (رضي الله عنها).

واشتد الوجع بالنبي ﷺ، وكان في بيت أمنا ميمونة (رضي الله عنها)،^(٣) فاستأذن أزواجه إذ ذاك أن يمرض في بيت عائشة (رضي الله عنها)؛ أي لا يدور بين نسائه، فأذن له - رضي الله عنهن جميعاً - إلا أن النبي ﷺ لم يستطع أن يخرج بنفسه لاشتداد الوجع عليه ﷺ، فخرج من بيت ميمونة إلى بيت عائشة (رضي الله عنها) وقد وهنت قوته، ولم يستطع السير بنفسه؛ بل خرج معتمداً على الفضل بن العباس وعلي - (رضي الله عنهما) أجمعين -.

خرج وقد رُئي خط قدميه على الأرض، كان يسحب قدميه سحباً ﷺ، حتى وصل إلى بيت أمنا عائشة (رضي الله عنها).^(٤)

وفي يوم الخميس، وما يوم الخميس! قالها ابن عباس (رضي الله عنهما) وبكى، أمرٌ جَلَلٌ وحدث جَلَلٌ في ذلك اليوم في يوم الخميس، اشتد برسول الله ﷺ وجعه، فقال لأصحابه الذين عنده في البيت: «أتوني بكتاب أكتب لكم كتاباً لن تضلوا بعده أبداً» فتنازع الصحابة - رضوان الله عليهم - وقالوا: إن رسول الله ﷺ قد

(١) رواه هذا السياق (الجمع بين الرجوع من جنازة البقيع والوجع) أحمد (رحمته) في المسند (ح ٢٥٩٠٨) وابن ماجه (رحمته) (كتاب الجنائز، باب غسل الرجل امرأته وغسل المرأة زوجها ح ١٤٨٧) وصححه الشيخ الألباني في الإرواء (ح ٧٠٠)، وأصله (الوجع وقوله: وأرأساه) عند البخاري (رحمته) (كتاب المرضى، باب قول المريض إني وجع، أو وأرأساه، أو اشتد بي الوجع، ح ٥٦٦٦).

(٢) أخرجه البخاري (رحمته) (كتاب فضائل الصحابة، باب فضل عائشة (رضي الله عنها) ح ٣٧٧٤) ومسلم (رحمته) (كتاب فضائل الصحابة، باب فضل عائشة (رضي الله عنها) ح ٢٤٤٣) من حديث عائشة (رضي الله عنها) وقالت في رواية البخاري: (فلما كان يومي سكن). ولكن في الحديث مرة أو مرتين ولم أجده فيما ذكرت ثلاث مرات والله أعلم.

(٣) رواه مسلم (رحمته) (كتاب الصلاة، باب استخلاف الإمام إذا عرض له عذر... ح ٤١٨).

(٤) أخرجه البخاري (رحمته) (كتاب المغازي، باب مرض النبي ﷺ ووفاته، ح ٤٤٤٢) ومسلم في الموضع السابق.

غلبه الوجع حسبنا كتاب الله.

أشفقوا على النبي ﷺ وقالوا: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ اشْتَدَّ بِهِ الْوَجْعُ وَعَلِمُوا أَنَّ الدِّينَ قَدْ كَمَلَ؛ لِأَنَّ اللَّهَ ﷻ قَالَ:

﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾^(١) وعلموا قول النبي ﷺ:

«تركتم على البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك كتاب الله وستي»^(٢) فقالوا: حسبكم كتاب الله، وعندكم القرآن. فتنازعوا في ذلك واختصموا:

فمنهم من يقول: قدّموا لرسول الله ﷺ يكتب لكم.

ومنهم من يقول: إن رسول الله ﷺ قد غلبه الوجع.

فلما أكثروا اللغو والاختلاف قال رسول الله ﷺ: «دعوني، دعوني فالذي أنا فيه خير من الذي تدعونني

إليه، أوصيكم بثلاث: أخرجوا المشركين من جزيرة العرب، وأجيزوا الوفد بنحو ما كنت أجيزهم» فقال ابن عباس - رضى الله عنه وأرضاه -: وسكت عن الثالثة، أو قال: ونسيت الثالثة.^(٣)

وفي ذلك اليوم أمر ﷺ بسبع قرب لم تحل أو كيتهن، قال: «لعلّي أعهد إلى الناس».

النبي ﷺ أمر بسبع قرب وذلك لشدة الحمى عليه ﷺ، فأراد أن يخرج إلى الناس فأمر بسبع قرب.

وهنا ذكر بعض أهل العلم أن هذا من الاستشفاء، وأنه ورد في السنة ما يدل على السبع في الاستشفاء.

قالت أمنا عائشة رضى الله عنها: فأجلسناه في مخضب لحفصة زوج النبي ﷺ، ثم طفقنا نصب عليه من تلك

القرب حتى طفق يشير إلينا بيده الشريفة ﷺ أن قد فعلتن.^(٤)

ثم خرج إلى الناس، وقد عصب رأسه الشريف ﷺ، حتى جلس على المنبر فحمد الله ﷻ، وأثنى

عليه، ثم قال: «أيها الناس، إن الله خير عبدا بين أن يؤتیه من زهرة الدنيا ما شاء وبين ما عنده، فاختر ما

(١) سورة: المائدة الآية (٥٣).

(٢) أخرجه أحمد رحمه الله (ح ١٧١٤٢)، وابن ماجه رحمه الله (المقدمة، باب اتباع سنة الخلفاء الراشدين المهديين، ح ٤٣) وصححه الشيخ الألباني رحمه الله في الصحيحة (ح ٩٣٧).

(٣) أخرجه البخاري رحمه الله (كتاب المغازي، باب مرض النبي ﷺ ووفاته ح ٤٤٣١ و ٤٤٣٢).

(٤) جزء من الحديث السابق قبل، أخرجه البخاري (كتاب المغازي، باب مرض النبي ﷺ ووفاته، ح ٤٤٤٢) ومسلم كما سبق أيضا (كتاب الصلاة، باب استخلاف الإمام إذا عرض له عذر، ح ٤١٨).

عند الله» والصحابة - رضوان الله عليهم - يسمعون، فبكى أبو بكر رضي الله عنه بكاءً شديداً، وقال رضي الله عنه: فديناك بآبائنا وأمّهاتنا يا رسول الله. قال أبو سعيد الخدري رضي الله عنه وهو راوي القصة: فعجبنا له! عجبنا لأبي بكر رضي الله عنه، وقال الناس: انظروا إلى هذا الشيخ! يُخبر النبي صلى الله عليه وسلم عن عبد خير الله بين زهرة الدنيا وما عنده وهو يقول: فديناك بآبائنا وأمّهاتنا يا رسول الله، لم يتنبّه الصحابة - رضوان الله عليهم - إلى المقصود، وأبو بكر رضي الله عنه فقه؛ فهو أعلم الصحابة وأفهم الصحابة - رضوان الله عليهم -، فطن وفهم المراد؛ فبكى وسالت دموعه رضي الله عنه وقال هذه المقولة: فديناك بآبائنا وأمّهاتنا يا رسول الله.

قال أبو سعيد رضي الله عنه: فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم هو العبد المخير، وكان أبو بكر أعلمنا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يا أبا بكر لا تبك»، ثم قال صلى الله عليه وسلم: «إن أمنّ الناس عليّ في صحبته وماله أبو بكر، وإنّي أبرأ إلى الله أن يكون لي منكم خليل فإن الله قد اتخذني خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً، ولو كنت متّخذاً من أمتي خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً».

هذا يقوله صلى الله عليه وسلم في آخر حياته، وهذا يدلّ ويبيّن بياناً قاطعاً على فضل أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وأنه أفضل الصحابة على الإطلاق - رضي الله عنه وأرضاه -.

ثم قال صلى الله عليه وسلم: «ألا لا يتيقن في المسجد باب إلا سدّ إلا باب أبي بكر» وذلك أنّ الصحابة رضي الله عنهم كانت لهم أبواب إلى المسجد، فأمر النبي صلى الله عليه وسلم بسدّ الأبواب جميعها إلا باب أبي بكر الصديق رضي الله عنه.^(١) قال العلماء: وفي ذلك إشارة إلى أنّ أبا بكر الصديق رضي الله عنه سيكون الخليفة من بعده، فدخل رضي الله عنه من هذا الباب.

ثم قال صلى الله عليه وسلم: «ألا وإنّ من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد»^(٢)

(١) هذه الفقرات المتفرقة في الجملة السابقة حديث واحد أخرجه البخاري في مواضع منها: (كتاب مناقب الأنصار، باب هجرة النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه إلى المدينة ح ٣٩٠٤)، وأخرجه مسلم رحمته الله (كتاب فضائل الصحابة، باب فضل أبي بكر الصديق رضي الله عنه، ح ٢٣٨٢).

(٢) هنا جمع الشيخ بين حديث أبي سعيد السابق وحديث جندب رضي الله عنه عند مسلم (كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب النهي عن بناء المساجد على القبور، ح ٥٣٢)، والقصة واحدة فقد قال جندب: (سمعتُه قبل أن يموت بخمس يقول)، وفيه ذكر الخلّة..

هنا النَّبِيُّ ﷺ يهتم بالتوحيد حتى في آخر حياته ﷺ، يحذر من هذا الأمر، يحذر من اتخاذ قبور الصالحين مساجد وينهى عن ذلك ﷺ، ويبيِّن أنه من سنة اليهود والنصارى.

ثم قال ﷺ: «أيُّها النَّاسُ، إنَّ النَّاسَ يكثرُونَ ويقلُّ الأنصار، حتى يكونوا في النَّاسِ بمنزلة الملح، فمن ولي منكم شيئاً يضر فيه قوماً وينفع فيه آخرين؛ فليقبل من محسنهم وليتجاوز عن مسيئهم»^(١)

وفي هذا بيان فضل الأنصار، وهنا -يا عبد الله- قف مع هذه الخطبة العظيمة وقفة تأمل وتدبر، كيف أنَّ النَّبِيَّ ﷺ تكلم في الأمور العظيمة التي احتاجتها الأمة من بعده:

* فبين فضل أبي بكر الصديق رضى الله عنه وقد نشأ في الإسلام مبتدعة^(٢) يشتمون ويسبون الصديق رضى الله عنه.

* وحذر من اتخاذ القبور مساجد، وقد نشأ في المسلمين من يتخذ القبور مساجد.

* وبين فضل الأنصار وقد نشأ في المسلمين مبتدعة يذمون الأنصار ويسبون الأنصار رضى الله عنهم وقبح من سبهم.

ثم إنَّ نساء النَّبِيِّ ﷺ كان من عادتهن أن يجتمعن عند النَّبِيِّ ﷺ في مرض موته، فاجتمعن ولم يغادر منهن امرأة، وجاءت آخرهن فاطمة بنت محمد - رضى الله عنها -، جاءت تمشي كأن مشيتها مشية رسول الله ﷺ لا تخطئ من مشية النَّبِيِّ ﷺ شيئاً فقال ﷺ: «مرحباً بابنتي»، اللهمَّ إِنَّا نشهدك على حبها - رضى الله عنها - وأرضاها - فأجلسها عن يمينه أو عن شماله، ثم أسرَّ إليها بحديث دون نساءه فبكت - رضى الله عنها - وأرضاها - ثم سارَّها بحديث آخر فضحكت - رضى الله عنها - وأرضاها -، فقالت لها عائشة رضى الله عنها: ما يبكيك؟ فقالت: ما كنت لأفشي سرَّ رسول الله ﷺ.

فلما توفي رسول الله ﷺ لا زال الأمر في قلب أمنا عائشة رضى الله عنها فقالت لفاطمة رضى الله عنها: عزمت عليك بما لي من حق لما حدثني ما قال لك رسول الله ﷺ؟

(١) أخرجه البخاري رحمه الله (كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، ح ٣٦٢٨). وهو في نفس القصة أيضاً لقول ابن عباس رضى الله عنهما راويه: (في مرضه الذي مات فيه) وقوله: (وكان آخر مجلس جلسه) ﷺ.

(٢) بل غالبهم كفار زنادقة للذي هو معلوم من حالهم وعقائدهم، وذهب بعض أهل السنة إلى تكفير من سب أبا بكر فقط - هذا قول على ما يحضرني - وهو في السب الذي هو دون التكفير، فإذا وصل إلى التكفير كما هو حال الروافض فتكفير صحابي واحد كفر، فكيف بتكفير الشيخ؟، بل كيف بمن اجتمع فيه الشر كله.

وتأمل عبارة عائشة رضي الله عنها تقول ذلك لفاطمة رضي الله عنها "عزمت عليك بما لي من حق عليك" ولم تنكر عليها فاطمة رضي الله عنها هذا الحق؛ بل قالت لها: أمّا الآن فنعم، أمّا الآن فأخبرك بما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:
 أمّا حين سارني في المرة الأولى، فأخبرني أنّ جبريل كان يعارضه القرآن كل عام مرّة، وأنه عارضه به في هذا العام مرتين. قال صلى الله عليه وسلم لفاطمة رضي الله عنها: «ولا أراني إلا وقد حضر أجلي فاتقي الله واصبري».
 وهذه سنة، يُسنّ للميت أن يوصي أهله بالتقوى والصبر وعدم التسخّط عند موته. فقال صلى الله عليه وسلم: «فاتقي الله واصبري، فإنه نعم السلف لك أنا» قالت: فبكيت بكائي الذي رأيت، لما رأى حزني سارني الثانية فقال: «يا فاطمة أما ترضين أن تكوني سيّدة نساء هذه الأمة، أو سيّدة نساء المؤمنين» فضحكت ضحكي الذي رأيت، وفي رواية: فأخبرني أنّي أول من يتبعه من أهله، فضحكت. ^(١)

وتذاكر نساء النبي صلى الله عليه وسلم عنده في مرض موته وتحدثن فذكرت أم سلمة رضي الله عنها وأم حبيبة رضي الله عنها أمراً عجباً رأيته وتعجب من منه، ما هذا الأمر العجيب أيّها الأحبة؟!

رأين كنيسة في الحبشة فيها تصاوير، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد سمع الحديث: «إنّ أولئك إذا كان فيهم الرجل الصالح فمات بنوا على قبره مسجداً، وصوروا فيه تلك الصور» ما حكمهم؟ بماذا حكم عليهم النبي صلى الله عليه وسلم؟ قال: «أولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامة». ^(٢)

فبناء المساجد على القبور وإدخال القبور في المساجد ليس من شأن المؤمنين؛ بل من شأن شرار الخلق والعياذ بالله.

وكان النبي صلى الله عليه وسلم لما ثقل يهتمّ بالصلاة فسأل وقال: «أصلّي الناس؟» فقالوا: لا يا رسول الله، هم ينتظرونك. ينتظرون خروج النبي صلى الله عليه وسلم إليهم فقال صلى الله عليه وسلم: «ضعوا لي ماء في المخضب» يريد أن يغتسل صلى الله عليه وسلم لعلّه يخف فيخرج إلى الناس، قالت عائشة رضي الله عنها: ففعلنا، فغتسل النبي صلى الله عليه وسلم فذهب يقوم فأغمي عليه لم يستطع القيام وأغمي عليه، فلما أفاق، قال: «أصلّي الناس؟» قالوا: لا يا رسول الله، هم

(١) الفقرات المفردة كلها حديث واحد أخرجه البخاري رحمته الله (كتاب الاستئذان، باب من ناجى بين يدي الناس ولم يخبر بسر صاحبه فإذا مات أخبر به، ح ٦٢٨٥ و ٦٢٨٦).

(٢) أخرجه البخاري رحمته الله (ح ٤٢٧)، ومسلم رحمته الله (كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب النهي عن بناء المسجد على القبور، ح ٥٢٨).

ينتظرونك، فقال: «ضعوا لي ماء في المخضب» ففعلوا فاغتسل ﷺ فجاء يقوم فلم يستطع فأغمي عليه ﷺ، فلما أفاق قال: «أصلي الناس؟»، قالوا: لا يا رسول الله، هم ينتظرونك، فقال: «ضعوا لي ماء في المخضب» فاغتسل ﷺ وذهب ليقوم، فلم يستطع وأغمي عليه ﷺ. ثم أفاق فقال ﷺ: «أصلي الناس؟» قالوا: لا يا رسول الله، هم ينتظرونك، والناس عكوف في المسجد ينتظرون خروج النبي ﷺ، وذلك في صلاة العشاء، فقال ﷺ لما عجز عن الخروج: «مروا أبا بكر فليصل بالناس» فما كان موقف أمنا عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا؟ قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: يا رسول الله إن أبا بكر رجل رقيق إذا قرأ القرآن فلا يملك دمه فلو أمرت غير أبي بكر. لماذا تقول أمنا عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا لرسول الله ﷺ ذلك؟ لماذا لا تريد أمنا عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أن يتقدم أبو بكر بالناس؟

الحكمة في ذلك -أيها الإخوة- أنها كرهت أن يتشاءم الناس بأول رجل قام في مقام رسول الله ﷺ، فخشيت أن يتشاءم الناس من أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فأرادت صرف ذلك عن أبيها - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وأرضاها- فقال ﷺ: «مروا أبا بكر فليصل بالناس» فأكد النبي ﷺ على أن يصلي أبو بكر بالناس، قال: «فإنكن صواحب يوسف» فأرسل ﷺ إلى أبي بكر أن يصلي بالناس، فأتاه الرسول فقال: إن رسول الله ﷺ يأمرك أن تصلي بالناس. فقال أبو بكر وكان رجلا رقيقا: يا عمر قم فصل بالناس، أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لما جاءه الأمر فهم من ذلك أن المقصود أن يصلي بالناس، وهو رجل رقيق القلب، فإذا قام يصلي وهو يعلم حال النبي ﷺ فقد يثقل الأمر عليه فلا يستطيع أن يسمع الناس، فأراد الأصلح للناس من هذا فقال: قم يا عمر فصل بالناس.

فقال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنت أحق بذلك.

وفي هذا بيان فضل أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وبيان فضل عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأنه يلي أبا بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بالشرف والفضل.

فصلي أبو بكر بالناس، ثم استمر أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يصلي بالناس، فوجد النبي ﷺ في نفسه خفة، فخرج يهادي بين رجلين،^(١) قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: كأي أنظر إلى رجله تخطان من الوجد يسحبهما سحباً ﷺ،

(١) هما العباس وعلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا كما في حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا هذا.

وكان أبو بكر يؤمّ الناس، فأراد أبو بكر رضي الله عنه أن يتأخّر فأوماً إليه النبي ﷺ أن مكانك، ثم أتى النبي ﷺ أتى به حتى جلس إلى جنب أبي بكر الصديق رضي الله عنه، فكان أبو بكر يصلي بصلاة رسول الله ﷺ وكان الناس يصلون بصلاة أبي بكر رضي الله عنه، وفي ذلك أوضح دلالة وأوضح إشارة إلى أن أبا بكر رضي الله عنه يلي رسول الله ﷺ في أمر هذه الأمة.

وقد جزم جمع من أهل العلم أنّ هذه الصلاة التي خرج إليها النبي ﷺ هي صلاة الظهر^(١) من يوم الخميس.

ثم بعد ذلك اشتدّ الوجع برسول الله ﷺ، وكان ﷺ في مرض موته عندما اشتدّ به الوجع يكبر ويقول: «أحسنوا الظنّ بالله»،^(٢) واشتدّ الوجع برسول الله ﷺ حتى قالت أمنا عائشة رضي الله عنها: ما رأيت أحداً أشدّ عليه الوجع من رسول الله ﷺ.^(٣)

وقال أبو سعيد رضي الله عنه يصف شدة الوجع على رسول الله ﷺ: دخلت على رسول الله ﷺ وهو يؤعك فوضعت يدي عليه فوجدت حرّه بين يديّ فوق اللحاف.

لا إله إلا الله، تأملوا يا إخوة، الرسول ﷺ بشابه وملتحف باللحاف فيضع أبو سعيد رضي الله عنه يده فوق اللّحاف فيجد حرّ رسول الله ﷺ، وذلك من شدة وجع نبينا ﷺ.

قال أبو سعيد رضي الله عنه لرسول الله ﷺ: يا رسول الله ما أشدّها عليك. يعني إنّ الحمى شديدة عليك فقال ﷺ: «إنا كذلك يضعف لنا البلاء ويضعف لنا الأجر».^(٤)

(١) كما هو صريح رواية البخاري (كتاب الأذان، باب إنما جعل الإمام ليؤتم به، ح ٦٨٧) وقوله: "إنكن صواحب يوسف" في: (كتاب الأذان، باب أهل العلم والفضل أحق بالإمامة، ح ٦٧٩)، وخشيته تشاؤم الناس من أبي بكر رضي الله عنه في (كتاب المغازي، باب مرض النبي ﷺ ووفاته، ح ٤٤٤٥). وأخرجه مسلم (كتاب الصلاة، باب استخلاف الإمام إذا عرض له عذر، ح ٤١٨)، فما سبق من التفاصيل جمع روايات لهذا الحديث في «الصحيحين». وانظر الخلاف في تحديد هذه الصلاة في شرح هذا الحديث من «الفتح».

(٢) عند البيهقي رحمته الله في دلائل النبوة (٧/ ٢٠٤)، من حديث جابر رضي الله عنه، وأخرجه مسلم رحمته الله (كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب الأمر بحسن الظن بالله تعالى، ح ٢٨٧٧)، بلفظ: «لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله» وذلك قبل موته بثلاث.

(٣) أخرجه البخاري (كتاب المرضى، باب شدة المرض، ح ٥٦٤٦) ومسلم رحمته الله (كتاب البر والصلة والآداب، باب ثوب المؤمن فيما يصيبه من مرض أو حزن أو نحو ذلك حتى الشوكة يشاكها، ح ٢٥٧٠).

(٤) أخرجه ابن ماجه رحمته الله (كتاب الفتن، باب الصبر على البلاء، ح ٤٠٩٦) وصححه الشيخ الألباني رحمته الله في «الصحيحة» (ح ١٤٤).

وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: أتيت رسول الله ﷺ وهو يوعك وعكاً شديداً. ^(١) فكان النبي ﷺ يوعك وعكاً شديداً في مرضه ﷺ.

ويشتد الوجع برسول الله ﷺ وطفق يطرح خميصة على وجهه، فإذا اغتم كشفها وهو كذلك يقول: «لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» ^(٢).

لا إله إلا الله، ما أشد عناية الرسول ﷺ بهذا الأمر، في ثلاث مواقف ﷺ يحذر من هذا الأمر وهو في شدة الوجع ويضع الخميصة على وجهه، يقول: «لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد».

وكما علمنا كان أبو بكر الصديق رضي الله عنه هو الذي يصلي بالناس، وبينما المسلمون يصلون صلاة الفجر من يوم الاثنين خلف أبي بكر الصديق رضي الله عنه كشف النبي ﷺ ستر حجرة عائشة، حتى رآه الناس، نظر إلى الناس وهم صفوف، وكان وجهه ﷺ ورقة مصحف من صفائه ﷺ وتبسم يضحك، لماذا يا أحبة؟ لأن المسلمين يصلون الفجر في جماعة..

الله أكبر، يا محب، كيف تفرط في صلاة الفجر مع الجماعة وأنت مخاطب بها، وأنت تعلم أن هذا الأمر أضحك النبي ﷺ أعني صلاة الفجر في جماعة أضحك النبي ﷺ في آخر يوم له في الدنيا، كيف يلد لك المنام؟ كيف لا تقوم لصلاة الفجر لتصلي مع الجماعة وأنت علمت أن النبي ﷺ في آخر يوم له نظر إلى المسلمين وهم صفوف في صلاة الفجر جماعة فتبسم يضحك ﷺ، فلما رآه الصحابة -رضوان الله عليهم- كذلك كادوا يفتنون من شدة فرحهم برؤية رسول الله ﷺ، فنكص أبو بكر رضي الله عنه على عقبيه ليتقدم رسول الله ﷺ فأشار إليه رسول الله ﷺ بيده أن تقدم، وأرخى الستر ﷺ ولم يخرج. ^(٣)

وظن الناس أن النبي ﷺ قد عوفي من مرضه، لما رأوه ﷺ؛ لكن المرض اشتد به ﷺ في ذلك اليوم،

(١) أخرجه البخاري رحمته الله (كتاب المرضى، باب شدة المرض، ح ٥٦٤٧ و ٥٦٤٨).

(٢) أخرجه البخاري رحمته الله (ح ٤٣٥ و ٤٣٦)، ومسلم رحمته الله (كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب النهي عن بناء المسجد على القبور، ح ٥٣١).

(٣) أخرجه البخاري رحمته الله (كتاب المغازي، باب مرض النبي ﷺ ووفاته، ح ٤٤٤٨)، ومسلم رحمته الله (كتاب الصلاة، باب استخلاف الإمام إذا عرض له عذر، ح ٤١٩) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه..

وثقل ﷺ وجعل يتغشاه المرض، وكانت فاطمة رضي الله عنها تقول: واكرب أباه، واكرب أباه، فسمعها النبي ﷺ فقال: «ليس على أبيك كرب بعد اليوم».^(١)

وكان النبي ﷺ كثيراً ما يوصي وهو في مرض موته بالصلاة، حتى كان آخر وصية رسول الله ﷺ الصلاة وهو يغرغر بها في صدره، وما كان يفيض بها لسانه ﷺ من شدة ضعفه؛ لكن كان مهتماً بأمر الصلاة، فكان يوصي بها، وكان ﷺ يقول: «الصلاة، الصلاة واتقوا الله فيما ملكت أيما نكم» حتى كان يغرغر بها في حلقه ولا يفيض بها لسانه ﷺ.^(٢)

وهذا يدلنا -أيها الأحبة- على عظم شأن الصلاة، وعلى عظيم اهتمام الحبيب المصطفى ﷺ بالصلاة.

وفي ضحى ذلك اليوم -يوم الاثنين- دخل عبد الرحمن ابن أبي بكر رضي الله عنه على رسول الله ﷺ وهو في بيت عائشة، وقد ثقل النبي ﷺ حتى لا يقوى على الكلام، وكان مع عبد الرحمن رضي الله عنه سواك يتسوك به، فلما رآه النبي ﷺ نظر إلى السواك، وكانت عائشة رضي الله عنها مسندة رسول الله ﷺ إلى صدرها، فرأته ﷺ ينظر إلى السواك، فماذا كان؟ عرفت أنه يحب السواك، كان النبي ﷺ يحب السواك، ويحافظ على السواك ويحرص على السواك، حتى في آخر لحظاته، فقالت عائشة رضي الله عنها لرسول الله ﷺ: آخذه لك؟ فأشار النبي ﷺ برأسه أن نعم، وهو لا يقوى على الكلام ﷺ، فأخذته عائشة رضي الله عنها وأعطته لرسول الله ﷺ فاشتد على رسول الله ﷺ ولم يستطع أن يتسوك به لشدة ضعف النبي ﷺ، فقالت عائشة رضي الله عنها لرسول الله ﷺ: أليته لك؟ فأشار ﷺ برأسه أن نعم، فأخذته عائشة رضي الله عنها وقرضته بأسنانها وليته لرسول الله ﷺ وأعطته لرسول الله ﷺ فاستن به وتسوك به.

وكان بين يدي النبي ﷺ ركوة، والركوة -كما تعلمون- إناء من جلد. (أو علبة)^(٣)، والعلبة إناء من

(١) أخرجه البخاري رحمته الله (كتاب المغازي، باب مرض النبي ﷺ ووفاته، ح ٤٤٦٢).

(٢) أخرجه ابن ماجه رحمته الله (كتاب الجنائز، باب ما جاء في ذكر مرض رسول الله ﷺ، ح ١٦٤٨) و (كتاب الوصايا، باب هل أوصى رسول الله ﷺ ح ٢٧٤٧) وصححه الشيخ الألباني رحمته الله في الإرواء (ح ٢١٧٨).

(٣) (أو علبة) ليس تفسيراً للركوة، يعني: ليست الركوة إناء من جلد أو علبة، بل إن قوله (أو علبة) هذا في لفظ الحديث، هكذا قال الراوي: بين يديه ركوة أو علبة، وما سوى ذلك من الشرح فهو من كلام الشيخ.

خشب كما قال العلماء.

هذه الرّكوة فيها ماء، فجعل النَّبِيُّ ﷺ يُدخل يده في الماء ويمسح بها وجهه الشّريف، ويقول: «لا إله إلا الله، إنّ للموت سكرات، اللَّهُمَّ أعني على سكرات الموت»^(١) وعرضت للنّبي ﷺ وهو كذلك بحّة، فسمعتة عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا يقول: «مع الذين أنعم الله عليهم من النّبيين والصّديقين والشّهداء والصّالحين وحسن أولئك رفيقا»،^(٢) وسمعتة عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وهو مستند إلى صدرها يقول: «اللّهم اغفر لي، وارحمني، وألحقني بالرفيق الأعلى».^(٣)

محمّد ﷺ الذي غفر الله له ما تقدّم من ذنبه وما تأخّر، كان يقول: «اللّهم اغفر لي وارحمني، وألحقني بالرفيق الأعلى» وبينما رسول الله ﷺ على فخذ عائشة وهو في هذه الحال الشديدة غشي عليه، ثم أفاق، فأشخص بصره إلى السّقف، ورفع رأسه الشّريف ﷺ بين سحر عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ونحرها، وقد أشخص بصره الشّريف إلى السّقف، ثم نصب يده الشّريفة فقال: «اللّهم الرفيق الأعلى، اللّهم الرفيق الأعلى» حتى قبض ومالت يده الشّريفة ﷺ، فكانت تلك آخر كلمة تكلم بها النّبي ﷺ.^(٤) تقول عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: فلمّا خرجت نفسه لم أجد ريحاً قط أطيب منها.^(٥)

وهكذا الصّالح -أيها الأحبة- يكون له نصيب من ذلك، فإن الميت تحضره الملائكة فإن كان الرّجل

-
- (١) أخرجه البخاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (كتاب المغازي، باب مرض النّبي ﷺ ووفاته، ح ٤٤٤٩) إلى قوله: «إنّ للموت سكرات» وأما قوله: «اللهم أعني على سكرات الموت» فأخرجه الترمذي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (كتاب الجنائز، باب ما جاء في التشديد عند الموت، ح ٩٧٨) وقال: (هذا حديث غريب)، وابن ماجه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (كتاب الجنائز، باب ما جاء في ذكر مرض رسول الله ﷺ، ح ١٦٢٣) وضعفه الشيخ الألباني رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
- (٢) أخرجه البخاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (كتاب المغازي، باب مرض النّبي ﷺ ووفاته، ح ٤٤٣٥). ومسلم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (كتاب فضائل الصحابة، باب فضل عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، ح ٢٤٤٤).
- (٣) أخرجه البخاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (كتاب المغازي، باب مرض النّبي ﷺ ووفاته، ح ٤٤٤٠). ومسلم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (كتاب فضائل الصحابة، باب فضل عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، ح ٢٤٤٤).
- (٤) أخرجه البخاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (كتاب المغازي، باب مرض النّبي ﷺ ووفاته، ح ٤٤٣٧ و ٤٤٣٨ و ٤٤٤٩) وفيه في (باب آخر ما تكلم به النّبي ﷺ ح ٤٤٦٣). مسلم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (كتاب فضائل الصحابة، باب فضل عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، ح ٢٤٤٤).
- (٥) أخرجه أحمد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (ح ٢٤٩٠)، وقال ابن كثير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في البداية والنهاية (٨/ ٧١ ط التركي): (وهذا إسناد صحيح على شرط الصحيحين، ولم يخرج أحد من أصحاب الكتب الستة) اهـ.

صالحًا قالوا: أَيْتَهَا النَّفْسُ الطَّيِّبَةُ كَانَتْ فِي الْجَسَدِ الطَّيِّبِ أَخْرَجِي حَمِيدَةً وَابْشِرِي بِرُوحٍ وَرِيحَانٍ وَرَبٍّ غَيْرِ غَضْبَانٍ. فَلَا يَزَالُ يُقَالُ لَهَا ذَلِكَ حَتَّى تَخْرُجَ، فَإِذَا خَرَجَتْ أَخَذَهَا مَلِكُ الْمَوْتِ فَلَمْ يَدْعُهَا الْمَلَائِكَةُ فِي يَدِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ، فَحَنَطُوهَا بِحَنُوطٍ مِنَ الْجَنَّةِ وَكَفَنُوهَا بِكَفْنٍ مِنَ الْجَنَّةِ، وَيَعْرِجُ بِهَا إِلَى السَّمَاءِ كَأَطِيبِ رِيحٍ.^(١)

اللَّهُمَّ اجْعَلْنَا مِنْ هَؤُلَاءِ، اللَّهُمَّ اجْعَلْنَا مِنْ هَؤُلَاءِ، اللَّهُمَّ إِنَّا نَعُوذُ بِكَ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا.

فَلَمَّا مَاتَ النَّبِيُّ ﷺ أَظْلَمَ كُلُّ شَيْءٍ فِي الْمَدِينَةِ كَمَا قَالَ أَنَسٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،^(٢) وَمَاتَ النَّبِيُّ ﷺ وَأَبُو بَكْرٍ فِي بَيْتٍ لَهُ فِي مَوْضِعٍ بِالْمَدِينَةِ يُقَالُ لَهُ: السُّنْحُ وَهُوَ فِي مَكَانٍ يُقَالُ لَهُ: الْعَالِيَةُ، وَذَلِكَ أَنَّ أَبَا بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَمَّا رَأَى النَّبِيَّ ﷺ فِي صَلَاةِ الْفَجْرِ قَدْ نَظَرَ إِلَيْهِمْ ظَنَّ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَدْ عُوِيَ فَذَهَبَ إِلَى بَيْتِهِ ذَلِكَ فَمَاتَ النَّبِيُّ ﷺ وَأَبُو بَكْرٍ هُنَاكَ فَأَخْبَرَ النَّاسَ بِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ مَاتَ فَاضْطَرَبُوا حَتَّى قَامَ عُمَرُ الْفَارُوقُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي مَسْجِدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: وَاللَّهِ مَا مَاتَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَلْيَبْعَثْنَهُ اللَّهُ فَلْيَقْطَعَنَّ أَيْدِي رِجَالِهِمْ. يَعْنِي الْمُنَافِقِينَ، وَذَلِكَ أَنَّ الْمُنَافِقِينَ عِنْدَمَا سَمِعُوا بِمَوْتِ النَّبِيِّ ﷺ ظَهَرَ بَعْضُ مَكْرِهِمْ فَقَامَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هَذَا الْمَوْقِفَ، وَاللَّهُ حَكِيمٌ، فَإِنَّ مَوْقِفَ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَدْ أَخَافَ الْمُنَافِقِينَ، فَلَمْ يَجْرؤُوا عَلَى شَيْءٍ مِمَّا يَرِيدُونَ، وَكَانَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَرُدُّ ذَلِكَ.^(٣)

فَأَعْلَمَ أَبُو بَكْرٍ الصَّدِيقُ بِمَوْتِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَجَاءَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَلَى فَرَسٍ حَتَّى دَخَلَ مَسْجِدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَالنَّاسَ مُضْطَرَبُونَ، فَلَمْ يَكَلِّمْ أَحَدًا حَتَّى دَخَلَ بَيْتَ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وَأَرْضَاهَا فَقَصَدَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ

(١) من حديث البراء بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الطَّوِيلِ الَّذِي أَخْرَجَهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي «الْمُسْنَدِ» (ح ١٨٥٣٤)، وَأَبُو دَاوُدَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي «السُّنَنِ» (ح ٤٧٥٣) وَالْحَاكِمُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي «الْمُسْتَدْرَكِ» (ح ١٠٧)، وَصَحَّحَهُ الشَّيْخُ الْأَلْبَانِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي «أَحْكَامِ الْجَنَائِزِ» ص (١٥٩) ط : المَكْتَبُ الْإِسْلَامِيُّ.

(٢) أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ (كِتَابُ الْمَنَاقِبِ عَنِ الرَّسُولِ ﷺ، بَابُ فَضْلِ النَّبِيِّ ﷺ، ح ٣٦١٨)، وَابْنُ مَاجَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (كِتَابُ الْجَنَائِزِ، بَابُ وَفَاتِهِ ﷺ وَدَفْنِهِ، ح ١٦٥٤)، وَصَحَّحَهُ الشَّيْخُ الْأَلْبَانِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) وَوَرَدَ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ : (إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَا يَمُوتُ حَتَّى يَفْنِيَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ) أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (ح ٢٥٨٤١)، وَعِنْدَ ابْنِ مَاجَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (كِتَابُ الْجَنَائِزِ، بَابُ ذِكْرِ وَفَاتِهِ وَدَفْنِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ح ١٦٥٠) بَلَفَظَ : (لَا يَمُوتُ حَتَّى يَقْطَعَ أَيْدِي أَنْاسٍ مِنَ الْمُنَافِقِينَ كَثِيرٍ وَأَرْجُلِهِمْ).

مغشًى بثوب فكشف عن وجهه، فأكبَّ عليه يقبله بين عينيه، ثم بكى، فقال: بأبي وأمي أنت يا نبي الله طبت حياً وميتاً،^(١) أما المودة التي كتب الله عليك فقد متها.

ثم خرج إلى المسجد وعمر رضي الله عنه يكلم الناس ويحلف فقال أبو بكر رضي الله عنه مخاطباً عمر رضي الله عنه: أيها الحالف على رسلك، اجلس. فأبى عمر رضي الله عنه أن يجلس. فقال له أبو بكر الصديق رضي الله عنه: أيها الحالف على رسلك اجلس. فأبى عمر رضي الله عنه أن يجلس.

فلما رآه أبو بكر الصديق رضي الله عنه كذلك أقبل على الناس فحمد الله وتشهد، فلما رأى الناس ذلك أقبلوا على أبي بكر الصديق رضي الله عنه وجلس عمر، فقال أبو بكر رضي الله عنه: أما بعد.. فمن كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت، قال الله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾^(٢) وقال تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإَيْنَ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَىٰ عَقْبَيْهِ فَلَنُيْضِرَّ اللَّهُ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾^(٣)، فكان الناس لم يكونوا يعلمون هذه الآية إلا في تلك الساعة.^(٤)

فلما سمعوا كلام أبا بكر الصديق رضي الله عنه أيقنوا أن حبيبهم ونبئهم صلى الله عليه وسلم قد مات، فضج الناس بالبكاء في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعمر رضي الله عنه لم يستطع أن يقوم من شدة الأمر عليه رضي الله عنه.^(٥) والله في ذلك حكمة، فقد كان موقف أبي بكر الصديق رضي الله عنه مبيناً الحق للناس، وأن محمد صلى الله عليه وسلم بشر شرفه الله بالرسالة، وأنه قد مات فأيقن الناس أن حبيبهم ونبئهم صلى الله عليه وسلم قد مات. وفي يوم^(٦) الثلاثاء شرع الصحابة -رضوان الله عليهم- في تجهيز النبي صلى الله عليه وسلم.

(١) وقال: (والله لا يجمع الله عليك موتتين) كما في الحديث.

(٢) سورة: الزمر الآية (٣٠).

(٣) سورة: آل عمران الآية (١٤٤).

(٤) فأخذوها من لسان أبي بكر رضي الله عنه، كل يقرأها.

(٥) أخرجه البخاري رحمته الله (كتاب المغازي، باب مرض النبي صلى الله عليه وسلم ووفاته، ح ٤٤٥٢ و ٤٤٥٣ و ٤٤٥٤)، وبعض الجزئيات من «دلائل النبوة» للبيهقي (٢١٧/٧) وغيره.

(٦) السيرة (٧/٥٩٣، ٥٩٢ مع شرح السهيلي).

وهنا أخذ الفقهاء درسا وفائدة فقالوا: إنه يجوز تأخير تجهيز الميت إذا كان في ذلك مصلحة ولم يخش على الميت التغير.

النبي ﷺ لا يخشى عليه التغير، فالصَّحابة -رضوان الله عليهم- لم يبدؤوا في تجهيزه إلا يوم الثلاثاء، ومن هنا قال الفقهاء هذا الحكم، يعني مثلا لو كان الميت له أبناء يحبون حضوره، وكانوا في مكان بعيد، وكان يوضع في الثلاجة ولا يتأخر ذلك كثيرا، فإنه لا بأس من انتظارهم، حتى يحضر أولئك الأبناء، الشَّاهد أنَّ الفقهاء قالوا: إنه إذا كان في تأخير الميت مصلحة ولم يخش على الميت تغير من تأخير، فإنه لا حرج في هذا التأخير.

الصَّحابة -رضوان الله عليهم- يعلمون أنَّ النبي ﷺ بشر، والميت إذا مات يغسل، فأرادوا تغسيل النبي ﷺ؛ لكن قالوا: والله ما ندري أنجرّد رسول الله ﷺ من ثيابه كما نجرد موتانا، أم نغسله وعليه ثيابه؟

فاختلفوا في هذا، فلما اختلفوا -سبحان الله- ألقى الله عليهم النوم حتى ما منهم من رجل إلا وذقنه في صدره، ثم كلمهم رجل من ناحية البيت لا يدرون من هو، فأمرهم أن يغسلوا النبي ﷺ وعليه ثيابه. ^(١) فتولّى عليّ رضي الله عنه تغسيل النبي ﷺ وعليه ثيابه، وعاونه بعض الصَّحابة ^(٢) -رضوان الله عليهم- كانوا يصبون الماء فوق القميص، ويدلكونه بالقميص دون أيديهم.

فقال علي رضي الله عنه: فجعلت أنظر ما يكون من الميت.

المعلوم أنَّ الميت يحصل له شيء من التغير ويحصل شيء من الرِّيح وتغير الرائحة.

يقول علي رضي الله عنه: فجعلت أنظر ما يكون من الميت فلم أر شيئا. وكان النبي ﷺ طيبا حيا وميتا. ^(٣) وكُفّن النبي ﷺ في ثلاثة أثواب بيض ليس فيها قميص

(١) أخرجه أبو داود رحمه الله (كتاب الجنائز، باب في ستر الميت عند غسله، ح ٣١٣٨) وحسنه الشيخ الألباني رحمه الله (ح ٢٦٩٣).

(٢) كان علي رضي الله عنه بذلك مسندا إياه علي صدره والعباس وقثم والفضل يقلبانه، وأسامة بن زيد وصالح مولى رسول الله ﷺ يصبان الماء، هكذا عند أحمد في موضع التخريج الآتي، وفي السيرة (٧/ ٥٩٣): (شقران مولى رسول الله ﷺ و رضي الله عنه) مكان (صالح).

(٣) إلى قوله (ميتا) وزيادة ستأتي عند أحمد رحمه الله (ح ٢٣٥٧)، وأخرج ابن ماجه رحمه الله قول علي رضي الله عنه هذا في (كتاب الجنائز، باب ما جاء في غسل النبي ﷺ، ح ١٤٨٩) وصححه الشيخ الألباني رحمه الله.

ولا عِمامة،^(١) ثم صَلَّى عليه النَّاسُ فرادى لم يؤمِّهم إمام في الصَّلَاة على النَّبِيِّ ﷺ، صَلَّى عليه الرِّجَال أولاً، ثم الصِّبْيَان ثم النِّسَاء والعبيد والإماء،^(٢) ودفن النَّبِيُّ ﷺ ليلة الأربعاء^(٣) حيث مات في حجرة عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وكانت حجرة عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا خارج مسجد رسول الله ﷺ.

واختلف الصَّحابة في كيفية دفن النَّبِيِّ ﷺ؛ هل يلحدون قبره لحداً، أم يشقُّونه شقًّا؟ منهم من قال ذلك ومنهم من قال ذلك.

وكان في المدينة رجلان^(٤): أحدهما يحفر القبر لحداً، والآخر يحفر القبر شقًّا.

فقال الصَّحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ: نستخير الله - تعالى - ونبعث إلى الرِّجلين فأيهما قدم قبل صاحبه خَليناه وحاله. فسبق الذي يحفر القبر لحداً.

فحفر قبر النَّبِيِّ ﷺ وجعل له لحداً، وجعل في القبر قطيفة حمراء تحت جسد النَّبِيِّ ﷺ،^(٥) وأدخل النَّبِيَّ ﷺ في قبره ونصب عليه اللبن نصبا،^(٦) وحشا أصحابه وأحبابه - رضوان الله عليهم - التراب عليه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، ورفع قبره عن الأرض مقدار شبر، ومَرَّ أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ببيت فاطمة بعد دفن النَّبِيِّ ﷺ فقالت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: يا

(١) أخرجه البخاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (كتاب الجنائز، باب الكفن بلا عمامة، ح ١٢٧١ و ١٢٧٣). ومسلم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (كتاب الجنائز، باب في كفن الميت ح ٩٤١).

(٢) أخرجه ابن ماجه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (كتاب الجنائز، باب وفاته ﷺ ودفنه، ح ١٦٥١)، والبيهقي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في دلائل النبوة (٧/ ٢٥١، ٢٥٠)، وذكره ابن هشام عن ابن إسحاق رحمهما الله في السيرة (٧/ ٥٩٤)، وضعف رواية ابن ماجه الشيخ الألباني رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ولكن قال ابن كثير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في البداية والنهاية (٨/ ١٣٤): (وهو أمر مجمع عليه لا خلاف فيه) اهـ. والترتيب فيه هو: الرجال ثم النساء ثم الصبيان.

(٣) ابن ماجه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في الرواية السابقة، وضعفه الشيخ الألباني رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كما سبق، وهو في السيرة (٧/ ٥٩٧، ٥٩٥) واختلف في ذلك وهذا هو الأرجح، وانظر البداية والنهاية الموضع السابق.

(٤) أخرجه ابن ماجه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (كتاب الجنائز، باب ما جاء في الشق، ح ١٥٧٩ و ١٥٨٠) هكذا دون تعيين، وصححه الشيخ الألباني رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وعند أحمد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (ح ٢٣٥٧) وفي السيرة (٧/ ٥٩٧) وكذا عند ابن ماجه في الحديث السابق أنفاً برقم (١٦٥١) وأشار الشيخ في ضعيف ابن ماجه صحة جزئية اللاحد والمضرح: أن الذي كان يضرح (أي يشق) لأهل مكة أبو عبيدة بن الجراح، والذي كان يلحد لأهل المدينة أبو طلحة زيد بن سهل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فأرسلوا إليهما فوجد صاحب أبي طلحة أبا طلحة فجاء به ولم يجدوا أبا عبيدة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٥) أخرجه مسلم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (كتاب الجنائز، باب جعل القطيفة في القبر، ح ٩٦٧) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٦) أخرجه مسلم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (كتاب الجنائز، باب اللحد ونصب اللبن على الميت، ح ٩٦٦) من حديث سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وورد أنها تسع لبنات.

أنس، يا أنس طابت نفوسكم أن تحثوا على رسول الله ﷺ التراب؟! (١)

وبعد موت النبي ﷺ ودفنه قال أبو بكر رضي الله عنه لعمر رضي الله عنه: انطلق بنا إلى أم أيمن نزورها كما كان رسول الله ﷺ يزورها.

انظروا حرص الصحابة - رضوان الله عليهم - على سنة رسول الله ﷺ، كان النبي ﷺ يزور أم أيمن فدفن الصحابة رسول الله ﷺ ثم يحرص أبو بكر الصديق رضي الله عنه على القيام بهذه السنة.

فلما انتهيا إليها بكت، فقال لها: فما يُبكيك فالذي عند الله خير لرسول الله ﷺ. فقالت - رضي الله عنها - وأرضاها -: إني لأعلم أن ما عند الله خير لرسوله ﷺ؛ ولكن أبكي أن الوحي قد انقطع من السماء. فهيجتهما على البكاء، فبكى أبو بكر الصديق رضي الله عنه وبكى عمر رضي الله عنه. (٢)

مات النبي ﷺ ولكل ميّت ميراث، والنبي ﷺ ما ترك ديناراً ولا درهماً، ولكن ترك ميراثاً عظيماً يشترك فيه المؤمنون إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، كل من رغب أن يرث من النبي ﷺ يستطيع أن يرث؛ بل إذا أراد أن يُكثر يستطيع أن يكثر ولا يمنعه أحد من ذلك، ترك النبي ﷺ العلم، فالنبي ﷺ يقول: «إنّا معاشر الأنبياء لا نورث، ما تركناه صدقة»، (٣) «ألا وإنّ الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً وإنما ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر» (٤) فإذا كنت يا أخي يا عبد الله تريد أن تكون قريباً من رسول الله ﷺ أن تكون ممن يرثون النبي ﷺ فعليك بالعلم، احرص عليه وتزوّد منه، وأكثر منه، فإنّك كلّما أكثرت من ذلك كنت أقرب إلى الحبيب ﷺ.

أيها الإخوة والأحبة...

هذا النبأ العظيم والخطب الجسيم، والقصة العظيمة لموت النبي ﷺ فيه دروس وعبر، فيه دروس

(١) أخرجه البخاري رحمه الله (كتاب المغازي، باب مرض النبي ﷺ ووفاته، ح ٤٤٦٢).

(٢) رواه مسلم رحمه الله (كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أم أيمن رضي الله عنها، ح ٢٤٥٤) من حديث أنس رضي الله عنه.

(٣) إلى هنا حديث عائشة رضي الله عنها أخرجه البخاري رحمه الله (كتاب الفرائض، باب قول النبي ﷺ " لا نورث، ما تركناه صدقة "، ح ٦٧٢٦)، ومسلم رحمه الله (كتاب الجهاد والسير، باب قول النبي ﷺ: " لا نورث، ما تركناه فهو صدقة، ح ١٧٥٨).

(٤) من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه رواه أبو داود رحمه الله (كتاب العلم، باب الحث على طلب العلم، ح ٣٦٤١)، والترمذي رحمه الله (كتاب العلم، باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة، ح ٢٦٨٢)، وصححه الشيخ الألباني رحمه الله.

كثيرة أشرنا إلى بعضها وألخص بعضها..

من دروس هذا النبأ العظيم - أيها الإخوة - أن يتعظ المسلم بوفاة رسول الله ﷺ..

فهذا رسول الله.. هذا خليل الله يموت ﷺ؛ بل يعاني شدة الموت حتى تقول أمنا عائشة (رضي الله عنها): ما كرهت شدة الموت لأحد بعد رسول الله ﷺ،^(١) وكيف لا يتعظ بموت النبي ﷺ بموت سيد المرسلين وإمام المتقين و خليل رب العالمين.

وهل يتوهم متوهم بعد موت الرسول ﷺ أنه يخلد؟ لا ورب الكعبة، فكل نفس ذائقة الموت، فهنيئاً لمن اتعظ بموت رسول الله ﷺ، وأعد العدة لما بعد الموت، هنيئاً لمن أيقن أنه يموت يقيناً أثر في عمله فكان يسعى ويسابق إلى جنة الخلد.

هذا النبي ﷺ مات، فكيف لا تتبه يا عبد الله؟! ألا ترى السنين تمر بك سريعة؟! ألم يقل أحدنا لأخيه أو لنفسه عندما دخل شهر رمضان: ما أسرع ما مرت الأيام، بالعام الماضي ودّعنا شهر رمضان، وكنا نرى شهر رمضان التالي بعيداً واليوم ندخل فيه، كأنها والله لحظة، عام مضى، طوى من أعمارنا سنة.

يقول الواحد منا: إذا مضت عليه سنة زاد عمري سنة، وحقيقة الأمر أن عمره نقص سنة، فالأجل محدود والعمر محدود، وكلما مضى يوم نقص من ذلك العمر، وهذه السنة التي مضت بين شهرين مباركين خطوة باعدتنا عن الدنيا خطوة، وقربتنا من الآخرة خطوة والله أعلم متى تنتهي الخطوات.

نظر ميمون بن مهران إلى مجلسه فرأى فيه شيوخاً وشباباً، فقال: يا معشر الشيوخ ما ينتظر بالزّرع إذا ابيضّ؟ قالوا: الحصاد. فنظر إلى الشباب وقال: يا معشر الشباب إنّ الزّرع قد تدركه آفة قبل أن يستحصد.

فالله الله أيها الإخوة في هذا الأمر العظيم، نتعظ بموت حبيبنا ونبينا وإمامنا ﷺ.

ومن دروس هذا الخطب الجلل تعزية المسلمين في مصابهم وفي مصائبهم وتهوين ما ينزل عليهم من المصائب.

(١) من حديث عائشة (رضي الله عنها) أخرجه البخاري رحمه الله (كتاب المغازي، باب مرض النبي ﷺ ووفاته، ح ٤٤٤٦).

فإن مرضت -يا عبد الله- فهذا رسول الله ﷺ مرض واشتدّ به الوجع ﷺ.

وإن فقدت حبيباً يا عبد الله، فقد فقدت الأحب فقدت رسول الله ﷺ الذي هو أحبّ إليك من نفسك ووالديك وأبنائك وأهلك والناس أجمعين، فتسلّى بموت رسول الله ﷺ، فما من مصيبة تنزل بك إلا ومصيبتك برسول الله ﷺ أعظم، ولذا قال النبي ﷺ: «أيها الناس.. أي أحد من الناس أو من المؤمنين أصيب بمصيبة فليتعزّ بمصيبته بي عن المصيبة التي تصيبه بغيري، فإن أحدا من أمتي لن يصاب بمصيبة أشد عليه من مصيبتي»^(١).

ومن دروس هذا الخطب الجلل الدروس العظيمة عظم شأن التوحيد وأهميّة الدعوة إليه وأهميّة الحرص بأن يدعى إليه، وأن يجعل في مقدمة الأمر أن يعظم شأنه كما كان النبي ﷺ يعظمه، النبي ﷺ قضى حياته بعد البعثة يدعو إلى التوحيد إلى آخر لحظة من لحظات حياته ﷺ.

فكيف يليق بمسلم أن يهون من شأن التوحيد، وأن يقول: ما بالكم تذكرون التوحيد وتذكرون التوحيد؟ التوحيد يمكن أن يكفيه يوم أو بعض يوم!

من دروس هذه القصة العظيمة في موت النبي ﷺ أن تعتقدا مؤمن اعتقاداً جازماً أنه يجب عليك أن تجعل التوحيد هو أعظم أمورك. وإن كنت داعية إلى الله أن تجعل التوحيد أعظم ما تدعو إليه، وأن لا تملّ من الدعوة إليه؛ بياناً وتحذيراً ودعوة؛ لأن النبي ﷺ كان على هذا الحال.

ومن دروس هذا الخطب الجليل بيان فضل أبي بكر الصديق رضي الله عنه كما تقدّم معنا، وبيان فضل عمر رضي الله عنه كما تقدّم معنا، وبيان فضل فاطمة رضي الله عنها وأرضاها - كما تقدّم معنا، وبيان فضل عائشة رضي الله عنها وأرضاها - كما تقدّم معنا.

ومن دروسه وعبره بيان أن النبي ﷺ بشر شرف بالرسالة - كما تقدّم معنا - فلا يعبد من دون الله، ولا يُعتقد أنه يعلم الغيب، ولا يُصرف له شيء من أنواع العبادة؛ لكنه ﷺ يُطاع فلا يعصى، ويُتبع ويجرّد المؤمن اتباعه للنبي ﷺ.

(١) أخرجه ابن ماجه رحمه الله (كتاب الجنائز، باب ما جاء في الصبر على المصيبة، ح ١٦٢٢) وضعف إسناده الشيخ الألباني رحمه الله وصحح الحديث بمجموع طرق وشواهد ذكرها في الصحيحة (ح ١١٠٦).

أَيُّهَا الْإِخْوَةُ..

هَذَا الْأَمْرُ الْعَظِيمُ الَّذِي تَحَدَّثْنَا فِيهِ لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَجْعَلَهُ مَدْرَسَةً نَدْرُسُ فِيهَا الْعَامَ كُلَّهُ، لَمَا كَفَى الْوَقْتُ،
فَفِيهِ الْكَثِيرُ مِنَ الدُّرُوسِ لِلْمُؤْمِنِينَ؛ وَلَكِنِّي أَكْتَفِي بِمَا أوردت حَرْصًا عَلَى الْوَقْتِ. سَائِلًا رَبِّي ﷻ بِأَسْمَائِهِ
الْحَسَنَى وَصِفَاتِهِ الْعُلَى أَنْ يَكْرِِمَنَا بِمَحَبَةِ النَّبِيِّ ﷺ الصَّادِقَةِ، وَأَنْ يَجْعَلَنَا مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ، وَأَنْ يَثْبِتَنَا عَلَيْهَا،
وَأَنْ يَجْعَلَنَا مِنَ الدُّعَاةِ إِلَيْهَا، الذَّاكِبِينَ عَنْهَا، وَأَنْ يَثْبِتَنَا عَلَى ذَلِكَ إِلَى أَنْ نَلْقَاهُ ﷻ.

وَأَسْأَلُ اللَّهَ لِلْحُضُورِ الْبَرَكَةِ وَالتَّيْسِيرِ وَالْمَغْفِرَةِ وَالرَّحْمَةِ، وَأَسْأَلُ اللَّهَ ﷻ لِهَذَا الْبَلَدِ الَّذِي اسْتَضَافَنَا أَنْ
يَجْعَلَهُ بَلَدًا آمِنًا مُسْتَقَرًّا بَلَدَ خَيْرٍ وَبَرَكَةٍ، وَأَنْ يَجْعَلَ السُّنَّةَ فِيهِ ظَاهِرَةً، وَأَنْ يَجْعَلَ أَهْلَهُ مِنْ أَهْلِ التَّوْحِيدِ،
وَأَنْ يَكْفِيَهُمْ شَرَّ الْفِتَنِ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ.

وَاللَّهُ أَعْلَمُ، وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَسَلَّمْ تَسْلِيمًا كَثِيرًا.

